كلمة الدكتور بيار عبده دكاش

في ميشال شيحا (القضية والرؤيا)

بدعوة من " دلب كونتري كلوب " المحيدثة ــ بكفيا

بتاريخ ٢٣ أيلول ٢٠١٠

أيها الحفل الكريم ،

مساء الخير ،

يسعدني في مطلع مداخلتي المختصرة ، التزاماً مني بالوقت المحدد ، أن اشكر "دلب كونتري كلوب" الداعي لهذه النَدوة ــ حول ميشال شيحا ((القضية والرؤيا))

وأخص بالشكر رئيس المركز الثقافي ، ومنسّق الأنشطة الثقافية فيه ــ الاستاذ جوزف مفرّج الذي زارني طالباً مشاركتي في هذا اللقاء مع ضمة مميزة من الأصدقاء مشهود لهم بطول الباع في مختلف الميادين الأدبية والإنسانية والصحافية والسياسية .

ترددت في القبول للحظات إذ كيف يمكنني ان اتكلم عن انسان بهذه المكانة المرموقة ــ حسبما ترامى الى مسمعي ؛ وانا لم اعرفه عن قرب ، ولم اعاصره ، وخفت من أن لا افيه حقه . ثم قبلت نزولاً عند رغبة صديقي الذي تربطني به علاقات عائلية وديّة ، وطبية جراحية ناجحة . فالمحاولة مستحبة وأن كانت تشبه المغامرة .

أجل : لم يحالفني الحظ بأن التقيه من قبل ، وان اتعرف عليه عن كثب ، فرحت افتش عنه في سيرته الذاتية ، وفيما كتب فيه وما صدر عنه من مقالات وما اطلقه من اراء؛ فوقفت واجماً امام وفرتها ، ولو اردت تعدادها لكنت بحاجة الى اضعاف اضعاف الوقت المحدد والمخصص لي، فأثرت التوقف عند بعضها ، اختصرها بمحطات ثلاث:

- الدستور
- الرؤية
- السرّ والصلاة

مدركاً انني سأثير في هذا الاختيار الغيرة فيما بينها.

الدستور : في وضع الدستور

في سنة ١٩٢٥ كان ميشال شيحا في لجنة قوامها ١٣ عضواً مكلفة باعداد القانون الاساسي للدستور اللبناني ، وفي سنة ١٩٢٦ شارك الى جانب بترو طراد وعمر الداعوق في لجنة ثلاثية أوكلت اليها مهمّة وضع مسودة الدستور ، والجدير ذكره في هذا السياق ان محفوظات ميشال شيحا تحتوي على المسودة الأصلية للدستور اللبناني ، ومختلف التصحيحات المطبوعة على ثلاث مراحل ، وهي مستمدة في صيغتها الاولى من الدستور الفرنسي للعام ١٨٧٥ .

اما المسودة النهائية فقد أدخل عليها تعديلات ، بمبادرة من ميشال شيحا صاحب الفكر الكبير والرؤيا الاستباقية والوطنية المجردة عن كل هوى ، بوجوب وجود سلطة قوية وثابتة ممثلة بشخص رئيس الجمهورية ؛ كما اورد في الدستور مادة لعدم جواز تجديد ولاية رئيس الجمهورية ؛ عند انقضاء مدة ولايته . وهذا ما لم نتمكن من الحفاظ عليه في الطائف ١٩٨٩ ونحن نعاني اليوم من هذه البدعة التي تمخض عنها فكر قادة الطوائف في لبنان وهي " أرساء نظام حكم بثلاثة رؤوس، خلافاً لكل منطق اداري ونظام بيولوجي"

وفي ٢٣ آيار ١٩٢٦ أعلن هنري دي جوفنيل عن ابرام الدستور اللبناني ، وبمجيء العام ١٩٣٠ دخل الدستور اللبناني حيز التنفيذ.

٢) في تعديل الدستور

ليس ابلغ من افتتاحية ميشال شيحا ، حول التعديل في عهد فخامة الرئيس بشارة الخوري، التي يندد فيها برغبة ٤٠ نائباً واكثر الذين وقعّوا وثيقةً بسريةٍ تامة واحتفظوا بها في احد الادراج بانتظار صدورها الى العلن .

وقد رفض التعديل من الناحية المبدأية متخطياً كل الاعتبارات العاطفية والعائلية والمصالح الذاتية مشدداً على التمسك بمصلحة البلاد العليا فيقول :

"من المحزن والمؤسف ان يتم التعاطي مع المواد الدستورية والشأن العام بهذه الطريقة، فهذا دليل على تردي الأخلاق السياسية وعلى الحاجة الى تقويمها" .

وهنا تحضرني المقولة : "يللي ما بتتعب عليه الايادي ما بتحزن عليه القلوب "

واليكم الخبر ،

اتاني ذات يوم ليس ببعيد الى عيادتي في مستشفى سانت تريز رجل مسن محني الظهر عالي الجبين يلح بمقابلتي لأمر هام جدّا ولو على غير موعد .

فالتقيته وبادرني بالكلام بصوت متهدج ! "انت تعرف يا دكتور بولفار شمعون وترى اشجار الكينا الكبيرة على جانبيه، انهم يقطعون اغصانها ويحاول الونش اقتلاع بعضها من جذورها، ثم اجهش بالبكاء ولم اعد افهم ما يتفوه به من كلمات سوى ، "ارجوك ان تتصل بمن بيده الأمر لايقاف هذا التعدي" .

ثم أضاف :

" منذ خمسين سنة كنت عاملاً بسيطاً وساهمت مع زملاء لي بزرعها ، وانا اجيء من وقت الى آخر أتفقدها ، وافرح بأنها تنمو وتكبر تسابقني ، فأنا اسير الى حتفي بانحنائي يوماً بعد يوم نحو الارض التي أمل ان يضمني ترابها ، اما هي فتنموا شامخة نحو العلا واشعر بإنني أخلد بوجودها.

ارجوك يا دكتور ساعدني انهم يقتلعوني معها ارجوك !!

وهكذا نرى كهذا المواطن الأمين ان ميشال شيحا رفض المساس بما صنعت يداه فيقول : هذا الدستور الذي عملت عليه اكثر من اي شخص كان على ما اظن ..... لن اقبل في أن يمس . " وفي خلاصة القول : ــ ليس خطابنا هذا إلا تعبير عن واجبنا الوطني والسياسي، وعن وعي المجتمع . فما نرفضه وما يثير التحفظ ويستدعى الاستنكار اليوم نجاهر به بالفم الملأن ــ والجميع يقف في صفوفنا اليوم أن جاهرنا ، بما ضاقت به نفوسنا، وخرجنا عن صمتنا". فكم نحن اليوم بحاجة الى أمثاله !!

الرؤية :

في العام ١٩٤٩ كتب يقول : " نحن هنا الجيران المباشرون لهذه الاسرائيل القبيحة، لقد نمت على حدودنا نمو زهرة مسخ تحت نور الشمس فلدينا كل الاسباب التي تجعلنا نقلق من المستقبل وان نرى ما لا يراه الاخرون ابداً .

قبل ان تشرق الشمس لتضيىء على لوحة الزمن المنبسطة امامنا بماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن وراء الغمام المتلبد الذي كان ولا يزال يحول دون انقشاع الرؤية ، رأى هذا العبقري والمفكر الكبير والبصير المتبصر بعقله الثاقب والنيرّ الخطر القادم والداهم في مشروع قيام اسرائيل الذي وصفه بانه " اغرب مشروع سياسي في العالم "

وحذر من تداعياته التي ستهدد فلسطين في زرع هذا الجسم الغريب في هذا المشرق الذي يغطُ في ثبات عميق. وحتى اذا استفاق ستسدل على ناظريه شاشة تعمي البصر بالإضافة الى بصيرته المصابة بالعمى او بالقصور او بالشح في عالم يتطور على عد الثواني وعلى مدار الساعة بسرعة تفوق سرعة الصوت ، لا بل تنافس سرعة الضوء.

ولم يقتصر تحذيره على اليهود فوجه الى العرب والاميركيين والبريطانيين ، منددأ ومستنكراً تعهدهم المجنون في انشاء دولتين وهو قرار غير معقول وغير ممكن التحقيق وشبه مستحيل، وغير قابل للحياة على مرّ السنين ومصيره سيء ومحكوم بالسقوط المحتم لا بل بالزوال بعد ان يفضي الى حرب دينية ستسهم في زعزعة اسس العالم " وهو مشروع لاستعمار الشرق الادنى وهنا يلتقي مع شارل مالك الذي يحذر قائلاً :

إن اسرائيل تخطط لوسم عصرنا بالعصر الاسرائيلي كما وسمت العصور في السابق بامبراطوريات تعاقبت على مدى التاريخ .

ويستغرب مفكرنا الكبير متسائلاً لماذا هذا الخيار الخاطىء ، بينما هناك مجالات وبقاع في العالم افضل وأجمل وأحسن وواسعة قابلة للبناء والازدهار والهناء والراحة والسلام؟

وكاني كنت استوحي افكاره قبل ان اقرأها في مقالاته وطروحاته لأقول :

ان زرع اسرائيل في هذا العالم العربي غير قابل للحياة على الرغم من ان الغاية المعلنة لهذا الكيان المسخ مختلفة عن الحقيقة الكامنة وراء المؤامرة . فلا يعتقدن احد ان زرع اسرائيل في هذه الارض البكر الطيبة والغنية هو من اجل العودة الى ارض الميعاد المزعومة والدليل التاريخي وأضح في قصة ملكي صادق وابينا ابراهيم او من اجل اعادة بناء هيكل سليمان ؛ او من اجل الصلاة على حائط المبكى . بل هو مشروع استعماري جديد لمنطقة غنية بالبترول والغاز والمعادن ومختلف الثروات الطبيعية ، تسكنها شعوب قابلة للتطور السريع ، رغم تخلفها ، اذا تركت لذاتها مع ثرواتها المتصاعدة ، ووعت اهمية مصيرها ، وتوحدت ، فستصبح الولايات العربية المتحدة اكثر غنى وقدرة تنافس دول الارض قاطبة .

ومنعاً لذلك أوجدوا اسرائيل "البعبع" لخلق جو من عدم الاستقرار ، وايجاد سوق لتجارة الاسلحة ، وطريقة مقنعة لسلب انتاجنا وثرواتنا برعاية اميركية في غفلة من الرأي العام العالمي ؛ فيهرع العرب الى شراء الاسلحة للدفاع عن النفس . وهكذا تستبدل الدول العظمى ترسانتها القديمة، فتبيعها من دول البترول ، وتستعيض عنها بالاسلحة الجديدة الفتاكة ، وتعيق العرب من الانفاق في المشاريع الإنشائية المتطورة، وتجعلهم يلهثون وراء السلاح القديم المستورد للدفاع عن النفس امام عدو غاصب مخيف .

وعلى سبيل المثال : فان اميركا تهدي اسرائيل طائرة اواكس فتشتري السعودية اثنتين، وتهدي فرنسا اسرائيل طائرتين من طراز Mirage فتشتري ليبيا ٢٠٠ طائرة الخ ...

٣) السر والصلاة

لقد خفي الكثير من دور ميشال شيحا الطليعي المميز بالسليقة . كان عفيف الكف فعفة اليد من طبعه ، فهو شاب ذكي ونشيط ، وطني ودبلوماسي وسياسي، مثقف وعبقري وصاحب رؤية تكاد تلامس النبؤة ؛ تحارُ في وصفه ، سمّه ما شئت ، فان كل النعوت والاوصاف تليق به ، ولكنها تبقى عاجزة من ان تفيه حقه ، فاتوقف عند واحدة ترضيني،

وهي الإنسان اللبناني الاصيل الذي لا تغريه الالقاب ولا تبطره المناصب ولا تستهويه الشهرة .

أنا لا اسعى الى رفع الغبن عن ميشال شيحا ، والتأكيد على دوره في تأسيس الدولة اللبنانية والمساهمة في بنائها والتمسك بدستورها ، بقدر ما أود :

اولاً : ان اسلط الضوء على فارس لبناني أصيل وحارس غيور للديمقراطية ، مؤمن بالحرية والروحانية ، وبما للتسامح والاستقلال من وجه نيرّ وعذب ونبيل يبشر بأن لبنان هو مهد الحضارات والاديان ويستحق ان يستضيفها كمركز عالمي للحوار تسكنه المحبة والسلام بدلاً من الحروب والفقر والدمار.

وثانياً : والى اثارة جانب مغمور من حياته الروحية وحبه للشعر والتبشير به والتأكيد على انه وليد الحرية ، ويلتقي هنا مع فؤاد افرام البستاني القائل : إن الوف الاطنان من الحبر والورق لا تولد بيت شعر واحد .

أما ميشال شيحا حامل القضية اللبنانية وصاحب الرؤية الخارقة ، فأنه يصرح بأن الشعر وليد الحرية وهو وليد اوجاعنا اكثر من افراحنا ، هو في الشمس والسكون في الفجر والليل ــ الشعر يُرجع الانسان الى قدره ويغمره سكوناً وحماساً ، والحكومات تجهل نعمه. ثم يضيف قائلاً : وقد اخذته نشوة الابداع .

ــ الشعر يبلغ الالوهية في ذاتها ، أنه سرّ وصلاة ــ

بوركت ذكراه وليكن القدوة في محاولتنا لانقاذ لبنان .